

## [ كتاب الأطعمة ]

[ ٤٠٢ - عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول - وأهوى النعمان بأصبعيه إلى أذنيه - : ( إن الحلال بين والحرام بين، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات: استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات: وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه . ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب ) . ]

يقول المصنف - رحمه الله - : [ كتاب الأطعمة ] "الأطعمة" جمع طعام، وهذا الباب يعتبر من أهم الأبواب؛ لما يتعلق به من المسائل والأحكام الشرعية في مطعم الإنسان، فقد أحل الله من الطعام ما أحل، وحرم منه ما حرم، والمسلم مأمور بأن يأكل من الطيبات وأن يجتنب المحرمات والخبائث، ومن طاب مطعمه استجيبت دعوته. واعتنى العلماء من المحدثين والفقهاء ببيان هذا الباب، وقد جاءت فيه النصوص العديدة في كتاب الله وسنة النبي ﷺ تبين الحلال والحرام في الطعام والشراب.

يقول - رحمه الله - : [ كتاب الأطعمة ] أي: في هذا الموضوع سأذكر لك جملة من الأحاديث عن رسول الله ﷺ في بيان ما يحل وما يحرم من الأطعمة.

وما أحل الله من الطعام أكثر مما حرم، والقاعدة في الشريعة: أن الأصل حل الطعام حتى يدل الدليل على تحريمه، ويدل الدليل على تحريم الطعام لخبثه، مثل: أن يكون من النجاسات والقاذورات، أو يجرمه لوجود الضرر، يكون - مثلاً - فيه ضرر: كالسموم، أو يجرمه عبادة: كما حرم على المحرم أن يصيد صيد البر وأن يأكله إذا صيد من أجله. وما أحل الله أكثر مما حرم، ولذلك قال تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَافِي

السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴿٤٠٢﴾ وقال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَّعًا لَّكُمْ  
وَاللَّسْيَارَةَ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾.

وجاءت النصوص عن النبي ﷺ ببيان المباح، كما قال ﷺ: ( إن الله أمر المؤمنين بما أمر به  
المرسلين، قال: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾ وقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ  
ءَامَنُوا كُلُّهَا مِنَ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾. وثبتت الأحاديث عن النبي ﷺ بتحريم أشياء فلا  
يجوز للمسلم أن يأكلها، وثبتت بحل أشياء، بل وفي بعضها الترغيب فيها وبيان فضلها،  
وهذا من كمال الدين: أنه بين للمسلم حتى الذي يأكله، فأصبح المسلمون مستغنون عن  
غيرهم وغيرهم فقير إليهم، لا يحتاجون إلى أحد أن يعلمهم فقد علمهم ربهم الذي هو  
العليم الخبير ﷻ، فهم ليسوا بحاجة لأحد أن يحل لهم ما حرم الله، أو يحرم عليهم ما أحل  
الله. وجاءت شريعة الله بالوسطية بين الإفراط والتفريط، فهناك عقائد وثنية شركية جاهلية  
تحرم على الناس طيبات أحلها الله، مثل بعضهم: يحرم على الناس أكل اللحوم فيقول: لا  
يعيش الإنسان إلا نباتياً! ومنهم من فتح الباب على مصراعيه: فأكل كل شيء، واستحل  
كل شيء، حتى إن الطبائع السليمة والنفوس تشمئز من أكل القاذورات وأكل الأطعمة  
الوبئة المضرة الوسخة المنتنة! اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلالك وعظمتك وسلطانك أن  
هديتنا للطيبات وأبجتها لنا، وهديتنا ودللتنا على المحرمات ونفرتنا منها - سبحانه وتعالى  
- قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ﴾ فهذه السنة عن  
رسول الله ﷺ بالوسطية.

وهذا الحديث يقول فيه النعمان بن بشير - رضي الله عنه وعن أبيه -: [ سمعت النبي ﷺ  
- وأهوى إلى أذنيه - ] فنعمة المتكلم ونعم السامع، وهنيئاً لأذن سمعت رسول الله ﷺ  
فوعت وعقلت عن الله ورسوله - صلوات الله وسلامه عليه -، ونضر الله وجهه إذ سمع

مقالة النبي ﷺ فوعاها وأداها كما سمعها وبلغها للأمة، فجزاه الله وجزى أصحاب نبيه - صلوات الله وسلامه عليه - خير ما جزى صحبًا في صحبته. [ يقول: ( إن الحلال بين ) ] هذا الحديث بين فيه النبي ﷺ قاعدة عظيمة، حتى إن بعض العلماء يقول: إن هذا الحديث ربع الإسلام، فكانوا يقولون: إنه ربع الإسلام

عمدة الدين عندنا كلمات      أربع من كلام خير البرية

فاتق الشبهات وازهد ودع ما      ليس يعينك واعملن بنية

"فاتق الشبهات" هذا الحديث الذي معنا قالوا: إنه ربع الإسلام؛ لما اشتمل عليه من هذه القاعدة العظيمة التي إذا سار عليها المسلم سلم له دينه وعرضه. قسم النبي ﷺ فيه الأمور إلى ثلاثة أقسام: حلال بين، وحرام بين، ومشتبه لا يعلمه كثير من الناس. وعلى هذا: ينبغي أن يُعلم أنه ما توفي رسول الله ﷺ إلا وقد تم الدين وكمل، وليس فيه من نقص ولا لبس ولا خلل ولا شبهة، فالدين في ذاته ونصوصه ودلالاته لا لبس فيها ولا شبهة، وإنما المراد: أن هذا الدين الذي بلغ للأمة منه ما هو واضح بين حله وإباحته، والأمر به وشرعه: كالتوحيد، والصلوات الخمس، والأمر ببر الوالدين وصلة الأرحام، حلال بين وأمر الله به. ومنه ما هو حرام بين لا يخفى على أحد: كالشرك بالله ﷻ، والمظالم، والاعتداء على الناس، ونحو ذلك من الأمور الواضحة المحرمات. وبينهن ما هو مشتبه - يعني: يخفى على كثير من الناس -، لما قال: [ وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ] معناه: أنه يعلمها القليل، والقليل هم العلماء، وهذا هو الحق: أن في دين الله وشرع الله ما لا يُعذر أحد بجهله من حلال وحرام، وفيه ما لا يعلمه إلا العلماء الراسخون، وشهد الله لمن تعلم وعلم علمًا صحيحًا ممكَّنًا فيه أنه راسخ، كما قال تعالى: ﴿ لَنَكِينِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ فأنبت أن هناك علماء وأن العلم فيهم رسوخ، وأنهم ليسوا بمرتبة واحدة، وأن الذين أوتوا العلم وصف عام "إيتاء العلم"، لكن هناك من هو راسخ في العلم، ومن هنا: يتدنى طالب العلم فيكون ما

يستشكله ويشتبه عليه أكثر مما يستشكله العالم، ويتعلم ويصل إلى مرتبة فيستشكلك ويشتبه عليه أمر أكثر ممن هو أرسخ، وأكثر علمًا وأكثر ضبطًا، وأكثر تعبًا وجدًا واجتهادًا في تحصيل هذا العلم. أما أن يُفهم من هذا الحديث: أن النبي ﷺ ترك الأمة على أمور مشتبهة لم يوضحها لهم، فلا! ( تركتكم على المحجة البيضاء ) فهي محجة بيضاء ( ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك ). وقال ﷺ: ( إن الله أحل أشياء فلا تحرموها، وحرم أشياء فلا تحلوها ) وقال تعالى في الأصل: ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ وقال سبحانه: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضَلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾. فالمراد: أن هناك اشتباه، ولذلك حتى أهل العلم حينما يختلفون وتتعارض النصوص عند عالم فهي تتعارض بفهمه، لا أن النص بذاته مشكل أبدًا! الحق واضح، وإنما فاضل الله بين أهل العلم وفضل بينهم، فهناك من يعلم ويخفى عليه ما لا يخفى على غيره من هو أكثر علمًا وأقل خفاء في هذا الأمر.

وعلى هذا يقول ﷺ: [ ( إن الحلال البين ) ] البين هو: الواضح، بان الشيء إذا اتضح، ومنه قول العرب: "بان الصبح" إذا أسفر ضوءه وانكشف، ويطلق البيان على الدليل. فقوله - عليه الصلاة والسلام - : [ ( إن الحلال ) ] أي: ما أحله الله، سواء كان في الأقوال أو الأفعال أو الاعتقادات، الأمور الظاهرة أو الباطنة [ ( بين ) ] متى يكون بينًا؟ إذا رجع الإنسان إلى من هو عالم بذلك الحلال الذي أحله الله، وذلك بالرجوع إلى أهل العلم، كما قال تعالى: ﴿ فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فمن أراد أن يستبين حلال الله فليسأل أهل العلم.

[ ( وإن الحرام بين ) ] بأسلوب التوكيد، فإذا أراد أن يستبين: فإنه يسأل العلماء ولا يرجع إلى هواه، ولا إلى العادات ولا إلى التقاليد، ولا إلى الإلف، بل عليه أن يرجع إلى ما قال الله وقال رسوله - عليه الصلاة والسلام - ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا

شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴿﴾ فكم من أمور هي عادة وجبلة يفعلها الإنسان وهي محرمة بتحريم الله لها من فوق سبع سماوات! يألؤها الإنسان وكأنها شيء معتاد ولكنه لم يستبين أمرها؛ لأنه لم يسأل أهل العلم ولم يرجع إلى أهل العلم، وهكذا بالنسبة للأمور المباحة: فقد يضيق على نفسه ويحرم على نفسه، ويمتنع من أشياء يظنها محرمة فإذا سأل أهل العلم تبين أنها من حلال الله وَعَلَيْكُمْ!

[ ( وبينهما أمور مشتبهات ) ] هذا يشبه هذا إذا كان فيه من صفاته، وتشبه الأمور بالأدلة، فهناك أدلة واضحة في الدلالة على الحل والتحريم، وهناك أدلة غير واضحة الدلالة جعلها الله امتحاناً للعباد، ولكن من أحسن النظر فيها ودقق النظر فيها، واستجمع آلات الاجتهاد بالجد والاجتهاد والتحصيل والرجوع إلى العلماء الراسخين: يستبين ويستحلي حقيقتها، فحينئذ تلتبس وتشكل على الإنسان، فهذا ينكشف أمره بالرجوع إلى أهل العلم الراسخين. قال ﷺ: [ ( لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات ) ] بمعنى: أنه جعل بينه وبين الشبهات وقاية، فلا يسترسل في إباحتها لنفسه وإنما يرجع إلى أهل العلم ويتورع، إذا التبس عليه الأمر لا يفعل شيء حتى يسأل أهل العلم، ومن هنا: إذا كان الشيء ملتبساً، وأقدم عليه الإنسان قبل أن يستبين بالدليل حله وحرمة: تكلمت فيه الناس، فهو - مثلاً - لو أراد أن يتعامل بتجارة، يبيع سيارة على وجه لا يدري أحلال هو أو حرام، فإنه إذا جلس بين أهله وبين إخوانه وبين عشيرته قال: أريد أن أبيع السيارة وأنا لا أدري أحلال هي أو حرام؟! أبيعها على وجه معين أو ببيعة معينة. حينئذ: هي مشتبهة بالنسبة له فيجب عليه الرجوع إلى أهل العلم، فإذا تورع وقال: أنا أتوقف حتى أسأل أهل العلم. لم يتكلم فيه أحد فسلم عرضه، وأيضاً: لم يستطع أن يتحمل مسؤولية لو تبين أنها حرام فسلم له دينه، ولكن العكس إذا وجدت الرجل متساهلاً، فأى شيء يقال له: يا أخي، هذا الشيء هل سألت أحد يحله؟ قال: ما سألت أحد يحله أو يحرمه لكن ما فيه شيء. يعطي الفتوى من

عنده ويسترسل في المشتبهات! هي مشتبهة له ليس عنده دليل على حلها وليس عنده دليل على تحريمها، فكان ينبغي أن يرجع! فرسم النبي ﷺ القاعدة بالرجوع إلى أهل العلم والاستفصال والاستبيان.

[ ( فمن اتقى الشبهات ) ] أن يسترسل فيها [ ( فقد استبرأ لدينه ) ] بعدم تحمل المسؤولية أمام الله ﷻ، فكم من آكل للربا يلعن صباح مساء قد قصر في سؤال العلماء، ويتعذر أنه لم يقل له أحد بجرمتها! وكم من معاصر لزوجته بالحرام يطلقها طلاقاً يوجب تحريمها عليه ويسترسل! فكان المنبغي عليه أن يتورع، فتعاطي الورع حتى يستبين الأمر مطلوب. وقد يكون الحرام في غير الأحكام - في المعاملات وفي الظواهر وفي الأوصاف -، فلو دخل إلى بيته فوجد شيئاً وشك هل له أو لغيره؟ فتورع، استبرأ لدينه وعرضه؛ حتى يستبين أنه له أو لغيره، هذا من الورع: أن تدع ما لا بأس به خشية الوقوع فيما فيه بأس، فمن عود نفسه على ذلك - وهو أنه يتورع ولا يقدم على الشيء -: ترى فيه شعور التقوى، وقويت نفسه على رعاية حدود الله ومحارمه؛ لأن من تورع في الأمور المشتبهة ووفقه الله أن يتقي المشتبهات، فإنه من باب أولى أن يتورع عن الحرام البين وأن ينكف عنه؛ لأن نفسه تفر مما فيه شبهة، فما بالك إذا كان حراماً بيناً؟ فهو أسلوب نبوي لتعويد النفس وترويضها على الحق ومجانبة الباطل، وعدم التساهل في الإقدام على الأمور غير الواضحة والملتبسة، ومن هنا: ثبت في الصحيحين عنه - عليه الصلاة والسلام -: أنه كان يتقلب في فراشه [ ... ] قال: ( فأهوي بها لآكلها ) هي في بيته. هذا يسمونه "دليل الظاهر"، دليل الظاهر: أنك ما وجدته في بيتك ملك لك، وما وجدته على فراشك فهو ملك لك، هذا من حيث دليل الظاهر، هناك أصل وهناك ظاهر، فهذه دلالة الظاهر. فقال: ( فأهوي بها لآكلها ) صلوات الله وسلامه عليه ( فأخشى أن تكون من تمر الصدقة فأدعها ) لأن الاحتمال موجود، فهذه من الشبهة في الصفات. فإذا تردد عندك الشيء بين الحل والتحريم

وبين الإباحة والمنع: فعليك أن تأخذ بجانب الورع، فإذا تولد هذا الشعور عندك، فإنه - بإذن الله ﷺ - سيسلم لك دينك، ويسلم لك عرضك.

ومثل النبي ﷺ هذا بقوله: [ كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ) ] كان في القديم - ولا زال إلى العصر الحديث - : الإنسان إذا كان في أرض، الحلال والبهائم تحتاج إلى مرعى، وهذا المرعى إذا كان في أرضي وأرض القبيلة: فهو للقبيلة؛ لأنه في أرضها، وكل مرعى في نبت قوم لهم فهم يحمون، وإذا جاءت غنم الغير إلى حماهم صار اعتداءً، ولربما أخذوا هذه الأموال على ما كانوا عليه في الجاهلية. فصوّر النبي ﷺ بضرب المثل، فالذي عنده مرعى ترعى فيه البهائم وجواره مرعى لغيره، فهناك حمى بين المرعيتين وحد ينبغي أن يفصل هذا الشخص عن مال غيره، فإذا حرص على أن لا تقرب هذه البهائم الحدود والحمى: فإنها تسلم، ويسلم له ماله، فدائمًا يرهاها ويراقبها ولا تقترب من الحمى، لكن إذا وجدها اقتربت من الحمى فقال: لا زالت في ملكي. فلا يأمن أن تسترسل وتدخل في حمى غيره! هكذا النفس البشرية إذا رُوضت على أن تكون بعيدة عن المشبوه، فمن باب أولى أن تكون بعيدة عن المحرمات، وهذه تربية للنفس أن تستقيم على طاعة الله ﷻ، وهذا أصل في كثير من العبادات، فالصوم مثلاً: فإن الإنسان في شهر كامل "شهر رمضان" يمنع من الأكل والشرب في شيء أحله الله له، فيمتنع في نهاره أن يأكل ويشرب، ويمسك عن شهوة بطنه؛ امتثالاً لأمر الله فيما هو حلال، فمن باب أولى أن لا يأكل أموال الناس ظلماً، ومن امتنع في صومه وأحس ولذلك قال النبي ﷺ: ( الصيام جنة ) وبين الله ﷻ أنه سبيل للتقوى لهذا المعنى. فمن ربي في نفسه هذا الشعور - أن يتقي المشتبهات - : فإنه من باب أولى أن يتقي المحرمات، ومن تساهل في الشبهات: فإنه حري به أن يتساهل في المحرمات.

يقول ﷺ: [ كالراعي يرعى حول الحمى ) ] الأصل في الحمى: أنه لا حمى إلا ما حمى الله ورسوله، وليس لأحد أن يحمي عن الناس - مرعىً أو حطباً أو صيداً - إلا ما حماه الله

ورسوله، وهذا هو الأصل المجمع عليه عند أهل العلم - رحمهم الله -؛ لأن المسلمين شركاء في الماء والكأ والنار. قال ﷺ: [ (كالراعي يرعى حول الحمى ) ] فيه دليل على ضرب المثل والتقريب للأحكام بالأمثلة، وهو من هديه - عليه الصلاة والسلام -، والأحاديث مرت معنا في أبواب متفرقة. [ (كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه ) ] [ (ألا وإن لكل ملك حمى ) ] في عادة الناس وطبائعهم وليس في الشرع. [ (ألا وإن حمى الله ) ] ملك الملوك وجبار السماوات والأرض. [ (ألا وإن حمى الله محارمه ) ] فأعطى الله العباد الكثير وسألهم أن يجتنبوا القليل اليسير، وأحل لهم الطيبات وما أكثرها، وحرم عليهم المحرمات وما أقلها؛ لعلهم يعقلون، ولعلهم يرشدون، ولعلهم يهتدون، ولعلهم يتقون - جعلنا الله وإياكم كذلك -.

فقال ﷺ: [ (ألا وإن في الجسد مضغة ) ] رجع إلى الأصل، لما كان هذا الأمر يتوقف على سبب مهم يقوم به الإنسان بأمر الله على الوجه الذي يرضي الله، فيحل حلاله، ويحرم حرامه، ويتبع شرعه ونظامه، لن يكون كذلك إلا بأصل وهو: صلاح قلبه، ومن صلح قلبه صلح قلبه، فمن زكت سريره صلحت علانيته. [ (ألا وإن في الجسد مضغة ) ] بأسلوب التوكيد [ (ألا وإن في الجسد مضغة ) ] على قدر ما يمضغ الإنسان، هذه المضغة التي تتوقف عليها حياة الإنسان بقدرته الله وعظمته ﷻ، هذه المضغة التي تضخ من الدماء - كما يقول بعض المعاصرين - يمكن ما يعادل الأرض في طولها لو أنه نُشر! ويعيش الإنسان نعمة الله فيها وقل أن يقول: اللهم لك الحمد على نعمتك! [ (ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب ) ] فليس للقلب ثالث من هذين الأمرين: إما أن يصلح، وإما أن يفسد [ (إذا صلحت صلح الجسد كله ) ] فلن تجد ورعًا يتعد عن المحرمات ويتقي الشبهات إلا وعلمت أنه من الصالحين، وأن هذا من صلاح قلبه، ولن تجد متهتكًا في حدود الله ومحارم الله من رجل أو



امراً. فتجد الرجل لا يبيع ولا يشتري إلا إذا قال الشرع: "هذا حلال" فيبيع ويشترى، ولا يقدم ولا يؤخر إلا بأمر الله، فإذا وجدته كذلك: فاعلم أن قلبه من الصالحين، وأن الله أصلح قلبه حتى صلح قلبه، ولن تجد امرأة يقال لها: احفظي عرضك، واتقي الله ﷻ في قولك وفعلك، واستتري بستر الله، وابتعدي عن محرمات الله. وامثلت ذلك مؤمنة صادقة مستحبة لله ورسوله: إلا كان ذلك من أظهر الدلائل على صلاح قلبها.

فما استقام قلب عبد لله إلا استقامت جوارحه، فالقلب لا يصلح إلا بأسباب، أولها وأعظمها: توحيد الله ﷻ، فمن كان موحدًا لله، مؤمنًا بالله صادقًا، في مقام المحسنين فقد كمل صلاح قلبه، فإذا كمل توحيد كمل الصلاح له، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ فالله يصلح القلوب بالإيمان به ويضيقها، ويشرق نور الإيمان فيها، تصلح القلوب بكتاب الله ﷻ ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ فالقرآن طب القلوب وطب القوالب وطب الأرواح، فهذا القلب إذا استقام بالقرآن وتأثر بالقرآن، فلا يتكلم ولا يعمل إلا وعنده حجة من كتاب الله ودليل: استقام، وإذا سكن هذا القرآن في القلب استقام القلب لله ﷻ؛ لأن في القرآن من الآيات والحجج والدلائل ما هو شفاء للقلوب ونور لها، فإذا أظلمت المعاصي أشرق نور القرآن، فانبج الحق وأسفر، واندرج الباطل وذهب وولى ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ فلا تصلح القلوب إلا بالإيمان بالله ﷻ، وبحب القرآن وسماع كلامه، والتأثر بالقرآن، فإذا أراد الإنسان أن يعرف صلاح قلبه فلينظر إلى كمال توحيد لله، فعلى سبيل المثال: من التوحيد: المراقبة، يقينه وإيمانه أن الله يسمعه ويراه، فيستحي من الله ﷻ أن يتكلم بالكلمة لا ترضي الله، ويقينه أن الله يسمعه ويراه فإذا به في سائر يومه منذ أن يقوم من فراش نومه والجنة والنار بين عينيه، فإذا بالقلب يرجف خوفاً من الله ﷻ، ويتجه بكليته لله ﷻ بالتوحيد، وهذا التوحيد حينما يكون عنده الشعور بمراقبة الله، فيأتي في عمله ووظيفته فلن يستطيع أن يقول كلمة لا

ترضي الله، ولن يستطيع أن يعد أحدًا في معاملة أو شيء، ولو فرض عليه ذلك لا يقدم ولا يؤخر إلا ما قدم الله وأخر، فعندها إذا سار على ذلك استقام قلبه، وإذا استقام قلبه استقامت جوارحه لله ﷻ، وهذا معنى قول الحسن - رحمه الله - قولته المشهورة: "ما ضربت ببصري ولا ضربت برجلي ولا مددت يدي إلا ونظرت". "ما ضربت ببصري ولا ضربت برجلي" مشيت. "ولا مددت يدي إلا ونظرت" يعني: هل هو الله؟ "إلا ونظرت" هل الله فأقدم؟ أو لغير الله فأحجم؟ هذا ما يكون إلا بالتوحيد؛ لأنه يعلم أن الله يسمعه ويراه، يستحي من الله ﷻ أن يسمع منه كلمة لا ترضيه، قال الإمام البخاري: "ما اغتبت مسلمًا منذ أن سمعت الله ينهى عن الغيبة".

فتصلح القلوب بالإيمان والتوحيد، يأتي من يغريه بالأموال فيرشييه فيعلم أن الله يسمعه ويراه، ويعلم أنه لو جاءته الدنيا بخذافيرها أنه تحت رحمة ملك الملوك وجبار السماوات والأرض، فلو صبت خزائن الدنيا في حجره يريد بها الغنى في معصية الله لم يزد إلا فقرًا، وأنه لو حجت عنه المناصب والمراتب ومحبة الناس وحجت عنه الدنيا بخذافيرها - والله راضٍ عنه - في أمر يغضب الله ﷻ، قيل له: لو تركته افتقرت! لمأله الله بالغنى حيًا وميتًا، ولجعل الله قليله كثيرًا، ويسيره عظيمًا، ورفعه الله من ضعة الناس، وأكرمه من مهانتهم، وأعزه من ذلتهم، فعندها يصلح القلب، متى ما علم أنه لا لأحد سواه.

فيقول - عليه الصلاة والسلام - : [ ( ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب ) ] في قوله - عليه الصلاة والسلام - : [ ( ألا وهي القلب ) ] دليل على عظم أمر القلب، وأنه ينبغي للمؤمن الذي يرجو رحمة الله ويخشى عذاب الله: أن يعتني بصلاح قلبه، وأن يبذل كل الأسباب التي تحرك هذا القلب لأن يأتي الله سليمًا يوم القيامة، فيبتعد عن الشبهات والشهوات، ولا يفتح على نفسه بابًا من أبواب الشبهة: من الشكوك والأوهام، والمسائل والاعتراض في أمور

الدين، والسماع لأهل الهوى وأهل الضلالات؛ حتى لا يفسد قلبه. ومن حرص على سماع العلم والحق من أهله: انشرح صدره واطمأن قلبه وصلح فؤاده. ولذلك يجد العبد الصالح إذا جلس في مجالس العلماء العاملين، أو قرأ كتب السلف الصالح من العلماء والأئمة المهديين، أو استمع إلى نصائحهم ومواعظهم: وجد نور الحق فيما يقولون وفيما يأمرون به، وأما إذا جلس للذين في قلوبهم مرض أو أصغى إليهم: فسد قلبه، وأعظم الفساد: فساد الدين أن يُدخل عليه بدعة وهوى وشكاً في الله - جل وعلا -، أو يسوقه إلى المنكرات أو إلى المحرمات. فيحرص المسلم على أن يأتي ربه بالقلب السليم بتعاطي الأسباب، ومن أعظمها وأجلها: ما ذكرنا من الحرص على الإيمان بالله ﷻ وسلامة القلب لله ﷻ، وكذلك الحرص على الاهتداء بالقرآن العظيم والتأثر به، وأسعد الناس بصلاح القلب: من اتبع سنة النبي ﷺ ولزم هديه وأحبه - صلوات الله وسلامه عليه -، وسأل عن هديه وسنته في القليل والكثير، وحرص على تطبيق تلك السنة والتزامها.

كذلك أيضاً: من أسباب صلاح القلب: التعود على الخير وإلف الخير والطاعة، فمن أكثر من الأعمال الصالحة قوي نور الإيمان في قلبه، وإذا قوي نور الإيمان في قلبه صلح ذلك القلب، فمثلاً: إذا وجدت الرجل والمرأة بمجرد أن يقوم من فراشه ويحجى في يومه: يحرص على أذكار الصباح وأذكار المساء، ثم يحرص على الإحسان إلى الناس من الصدقات ومن تفريج الكربات، ثم يحرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم يحرص على الخير والبر: لا يمكن أن تغيب عليه شمس ذلك اليوم إلا وكان نور الإيمان أوضح ما يكون في قلبه، وأجلى ما يكون في فؤاده. والعكس بالعكس، فإن أصبح لغير الله، فلا يفكر إلا في شهوة أو نزوة، أو قضاء وطر، أو حصول على محرم: أظلم قلبه، فلا تغيب عليه الشمس إلا وقد ذهب من إيمانه على قدر ما ضيع من حق ربه، ولربما يصبح مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً! قال ﷺ: ( يصبح العبد فيهن مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا ) نسأل الله السلامة والعافية!

فيحرص المؤمن خاصة في أزمته الفتن على الثبات، وإذا وجد صلاحًا في قلبه ثبت على ذلك الصلاح، فإذا وجد من يستهزئ به أو يستخف به، أو وجد الفتن والمحن في الجماعات وفي الأمم: ثبت على دين الله، وقويت شكيمته في الحق، ولن يبالي ولو تغيرت الدنيا كلها فلا يتغير نور الإيمان في قلبه، إلا إلى زيادة وإلى حسن وبهاء، واثقًا بربه، معتمدًا على الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، ويتأمل أحوال الرسل، فإن نبي الأمة ﷺ كان في غار حراء، ونزل عليه الوحي وهو رجل للأمة وإذا به قد أشرفت الأرض من مشرقها إلى مغربها بنور هذا القرآن! وهنا يدرك المسلم أن العظمة لله، وأنه لا يمكن أن تنكسر له قناة في دين الله، وأن لا يغير ولا يبدل، فليثبت على صلاح قلبه، فالاضطراب والخلل عند الفتن - كما أخبر الله ﷻ - تزيع به القلوب، وتضعف وتفسد به القلوب، فتجد الإنسان إذا نزلت فتن أو أحاطت بالناس فتن: ضعف إيمانه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنصَابُهُ فَنَاءٌ أَنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةَ﴾ بل المؤمن الصالح تزيده الفتن ثباتًا وقوة، وتزيد قلبه صلاحًا واستقامة، وحسن ظن بالله ورباط جأش في طاعة الله حتى يكون من المرابطين ومن الصابرين، ومن الثلة القليلة في الآخرين - جعلنا الله وإياكم منهم بمنه وكرمه ورحمته وهو أرحم الراحمين - .

كذلك من أسباب صلاح القلب: الحرص على غشيان حلق الذكر والمواعظ والتأثر بها، فهذه كلها أسباب تحرك القلوب إلى الله ﷻ، كما أخبر ﷺ بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾ فأخبر أن القلوب إذا صلحت تثبت على صلاحها بسماع الذكر والتأثر به والعمل به، والعكس بالعكس، فمن يجلس في المواعظ أو يسمع المواعظ ولا يرعي لها سمعه، أو يعلمها ولا يعمل بها: فإنه يكون على خلاف ذلك - نسأل الله السلامة والعافية - . يقول ﷺ: [ إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسدت الجسد كله، ألا وهي القلب ] [ ... ] .